هارون الرشيد وجعفر البرامكي

عندما يكون الطموح غير المشروع والزائد عن الحد، والرغبة في مناطحة الخليفة، هي المحرك الأساسي عند الشخص، يكون في نهاية ذلك الأمر نهايته، وربما نهاية عشيرته أيضًا.

هذا هو ما حدث في سيرة الوزير جعفر البرمكي، مع الخليفة العباسي الأشهر هارون الرشيد، والتي انتهت بإعدام جعفر، ونكبة كبرى للبرامكة.

البرامكة، عائلة فارسية مجوسية عريقة الأصل في التاريخ الفارسي، كان عميدهم أحد سدنة بيت النار وخدامه الكبار، ساهمت في مقارعة الأمويين وفي قيام الدولة العباسية لاحقًا، كانت لهم مآثر وفضائل في الدعوة العباسية ثم تأسيس الدولة العباسية، وبعد نجاحهم في الدعوة جعلوا أسماءهم عربية، وقد علا نجمهم أيام هارون الرشيد؛ فالأب يحيى بن خالد البرمكي، كان المسؤول عن تربية هارون الرشيد، وزوجته أرضعت هارون الرشيد، وهو الذي حافظ لهارون على ولاية العهد عندما همَّ الخليفة الهادي بخلع أخيه هارون.

أبلى يحيى، في خدمة الرشيد في الوزارة بلاءً حسنًا، حتى فوضه الخليفة كل الأمور، أما ابنه الفضل البرمكي أو جعفر، فقد كان أكبر الإخوة، وكان أخًا لهارون الرشيد في الرضاعة، والمسؤول عن تربية الأمين ابن الرشيد، وقد استطاع أن يقضي على فتنة يحيى بن عبد الله في بلاد الديلم وولي خراسان وغيرها، واتخذ من جندها جيشًا كبيرًا تعداده قرابة الخمسين ألف جندي، جعل ولاؤهم له مباشرةً وسماهم بـ "العباسية".

يرجع أصل أسرة البرامكة إلى جدهم الأول برمك المجوسي، وكان من سدنة بيت النار، ولم يتخذ الإسلام دينًا، وكانت بغداد تضم مجاميع كبيرة من الفرس الذين ساهموا مساهمةً لا نظير لها في قيام الدولة العباسية، بعضهم اتخذ الإسلام، وبعضهم تظاهر بالإسلام ظاهرًا وبقي مجوسيًّا باطنًا ومنهم الشاعر بشار بن برد، أما الشاعر أبو نواس، فقد كان فارسي الأصل من أنصار الشعوبية ([2])، وكان يحيا حياة العبث واللهو، إلى أنه مات على إسلامه، فقد قال قبل أن يموت: "عفوك إني مسلم".

أما الخليفة الأشهر هارون الرشيد، فيعتبر من أشهر الخلفاء العباسيين وأكثرهم ذكرًا حتى في المصادر الأجنبية كالحوليات الألمانية في عهد الإمبراطور شارلمان، التي ذكرته باسم "آرون"، والحوليات الهندية والصينية التي ذكرته باسم "ألون"، أما المصادر العربية فقد أفاضت الكلام عنه لدرجة أن أخباره قد امتزجت فيها حقائق التاريخ بخيال القصص، ولا سيما كتاب "ألف ليلة وليلة" التي صوَّرته بالخليفة المسرف في الترف والملذات، وأنه لا يعرف إلا اللهو وشرب الخمور ومراقصة الغانيات، والواقع إن هذا الخليفة كان من خيرة الخلفاء وأكثر من ظُلم في التاريخ، فقد كان يحج عامًا ويغزو عامًا، وقيل إنه كان يصلي في خلافته في كل يوم مائة ركعة، حتى وفاته، ويتصدق بألف دينار، وكان يحب العلماء ويعظِّم حرمات الدين، ويبغض الجدال والكلام، ويبكي على نفسه ولهوه وذنوبه، لا سيما إذا وعظ، وقد تم فتح الكثير من البلدان في زمنه، واتسعت رقعة الإسلام، واستتب الأمن وعمَّ الرخاء وكثر الخير، بما لا نظير له، ثم إن هذا الخليفة كان حسن السيرة والسريرة.

---

[2] وهي معاداة التراث العربي.

كذلك كان يصور بصورة الخليفة الحذر الذي يبث عيونه وجواسيسه بين الناس، ليعرف أمورهم وأحوالهم، بل كان أحيانًا يطوف بنفسه متنكرًا في الأسواق والمجالس، ليعرف ما يقال، والواقع أن هذه الصورة المتباينة للرشيد، ما هي إلا انعكاس للعصر الذي عاش فيه بمحاسنه ومساوئه، وهو العصر العباسي الأول أو العصر الإسلامي الذهبي، وقد تميز عصره بالحضارة والعلوم والازدهار الثقافي والديني، كذلك ازدهار الفن والموسيقى، وأسس المكتبة الأسطورية "بيت الحكمة" في بغداد، وزودها بأعدادٍ كبيرةٍ من الكتب والمؤلفات من مختلف بقاع الأرض، وكانت تضم غرفًا عديدة تمتد بينها أروقة طويلة، وخصصت بعضها للكتب وبعضها للمحاضرات وبعضها الآخر للناسخين والمترجمين والمجلدين، كما تمت في عهده أول ترجمة إلى العربية لأشهر كتابٍ علمي عُرف في التاريخ وهو كتاب الأصول "الأركان" في الهندسة والعدد لإقليدس، وتطورت العلوم خصوصًا الفيزياء الفلكية والتقنية، وأُبتكرت عدد من الاختراعات كالساعة المائية، كما أنشئ في عهده أول مصنع للورق ببغداد، وصار سوق الوراقين لاحقًا، الذي يضم مئات الحوانيت التي تبيع السلع الورقية الفاخرة، مفخرة عاصمة العباسيين، وكان ورق بغداد يقدَّر تقديرًا عاليًا في المنطقة، حتى أن بعض المصادر البيزنطية تسمي الورق بصحف بغداد، في ربطٍ مباشرٍ بينه وبين مدينة بغداد، وبدأت المدينة خلال فترة حكمه بالازدهار كمركز للمعرفة والثقافة والتجارة.

اهتم الرشيد بالإصلاحات الداخلية، فبنى المساجد الكبيرة والقصور الفخمة، وفي عهده استعملت القناديل لأول مرة في إضاءة الطرقات والمساجد، واعتنى أيضًا بالزراعة ومأسسة نظامها، فبنت حكومته الجسور والقناطر الكبيرة وحفرت الترع والجداول الموصلة بين الأنهار، وأسس ديوانًا خاصًا للإشراف على تنفيذ تلك الأعمال

الإصلاحية، ومن أعماله أيضًا تشجيع التبادل التجاري بين الولايات وحراسة طرق التجارة بين المدن، وقد شيد مدينة الواقفة قرب مدينة الرقة على ضفاف الفرات، لتكون مقرًا صيفيًّا لحكمه.

تكاثرت الأقاويل حول السبب في نكبة البرامكة، قيل إن جعفر البرمكي كان السبب؛ فهو نديم الرشيد وخليله في المجالس، وله من الأعمال الكبيرة أيضًا، فهو الذي قضى على العصبية القبلية في الشام، ثم جعل له ولاية خراسان والشام ومصر وجعله من المقربين له، حتى أنه جعله حامل خاتم السلطة.

اختلف المؤرخون فيما بينهم في السبب الذي دفع الرشيد إلى إفناء الأسرة البرمكية بكاملها، على الرغم من أعمالهم العظيمة، واختلقت روايات كثيرة أهمها أن العباسة أخت الرشيد، كانت لها علاقات غرامية مع جعفر البرمكي، إلا أن الكتبة العرب والمسلمين يرفضون هذه القصة، والأمر معهم معروف؛ فالعباسة أخت الرشيد، عربية قرشية النسب، وجعفر البرمكي، فارسي النسب، بحسب رؤيتهم، وربما كان الأمر أنه كان يختلي بها سرًا، فشاع أمرهما بين الناس، ما أثار حفيظة الخليفة العباسي الرشيد، فيما يعزو بعضهم الأمر إلى حادثة يحيى بن عبد الله الطالبي، الذي خرج إلى بلاد الديلم وأعلن الملك لنفسه هناك، وبايعه كثيرٌ من الناس، ومن ثم قويت شوكته، فأرسل إليه هارون الرشيد جعفر البرمكي، واستطاع الفضل أن يستنزل يحيى بالسلام على أمان له عند الرشيد، وذلك من غير إراقة الدماء، وعدَّ ذلك من أفضل أعمال جعفر البرمكي، وبعد فترةٍ ظهر من يحيى ما أوجب عند الرشيد نقض الأمان، فأمر بحبسه عند جعفر البرمكي، وفي ليلة اجتمع يحيى مع جعفر البرمكي، وما زال به حتى أطلقه جعفر وزوده بالمال اللازم لخروجه من بغداد، فوصل الخبر للرشيد واعتبر ذلك خيانةً عظمى عند العباسيين، لشدة خوفهم من الطالبيين،

فخاف الرشيد من تآمر آل برمك مع الطالبيين، من أجل إقصاء العباسيين، فأمر بقتل جعفر البرمكي وحبس جميع البرامكة.

أما السبب الآخر لبغض الخليفة الرشيد البرامكة، فهو أنهم كانوا يعيشون في ترفٍ لا مثيل له، رغم أن الترف مارسه كافة القادة الذين غزوا وسبوا البلدان، وكان الخليفة الرشيد واحدًا ممن استلموا ملكًا كله نتيجة غزو وسبي، وكان البرامكة يعيشون ترفًا ليس به ضريب، فقد كانوا يبنون قصورًا مزدانة حوائطها وأراضيها بالذهب والفضة، وبنى جعفر البرمكي بيتًا كلفه عشرين مليون درهم، فقد كان الخليفة الرشيد في سفر ذات يوم فوجد في كل إقليم وقرية قصورًا، وقال له الناس هذا لجعفر البرمكي، وعندما عاد جعفر البرمكي من حربه في الديلم، أطلق لمادحيه ثلاثة ملايين درهم، كل ذلك جعل الرشيد يتابعهم في الدواوين والكتابات، فاكتشف خللًا كبيرًا في مصاريف الدولة.

ومن الروايات الأخرى عن نكبة البرامكة، فقد كان الفضل بن الربيع، وهو من موالي العباسيين، وكان شديد العداء للبرامكة، ويقال إنه هو الذي سعى بهم عند الرشيد، وأظهر عيوبهم، فعيَّن الخليفة الرشيد الجواسيس حولهم، حتى استطاع أن يرصد حادثة هروب يحيى الطالبي عند جعفر البرمكي، فأخبر بها الرشيد، وزين له أن البرامكة يريدون الخلافة للطالبيين.

وقيل إن السبب الآخر في نكبة البرامكة، هو الشكوك في اعتناقهم الإسلام، فقد ذكر بعض المؤرخين أن البرامكة لم يتخلوا من مجوسيتهم، بل حاولوا إعادة المجوسية، وأنهم أدخلوا النار في الكعبة حتى تعبد هناك، والذي ساعد على ترويج هذه الفكرة، مصاحبة جعفر بن يحيى البرمكي لبعض الزنادقة، ومنهم أنس بن أبي شيخ الذي

قتله هارون الرشيد بيده، وكان الكثير من أصحاب الأصول المجوسية يتظاهرون الإسلام، لكنهم كانوا مجوسًا في دواخلهم.

ولعل المهم من جملة أسباب نقمة الخليفة الرشيد على البرامكة، هو إنشائهم جيش البرامكة، وأصل هذا الجيش كان جيش الفضل بن يحيى من جند خراسان المعروفة بولائها للعباسيين، وكان ميلهم أكثر نحو الطالبيين، أي آل البيت، وكان عدد جنده خمسين ألف رجل ولاؤهم للبرامكة مباشرةً دون غيرهم، ثم استقدم منهم عشرين ألف لبغداد، وسماهم "الكرنبية" ما أثار هواجس الرشيد، غير أنه لم يتحرك حتى جاءه خبرٌ من والي خراسان على بن عيسى بن ماهان، أن السبب في اضطراب خراسان هو موسى بن يحيى من بغداد، فتحقق الظن عند الرشيد، لهذا قرر عند رجوعه من الحج وفي آخر ليلة من شهر الله المحرم، الإيقاع بالبرامكة، فأمر بقتل جعفر وصلبه على جسر بغداد، وحبس باقي البرامكة في السجون والاستيلاء على أموالهم وقصورهم وكل ما لديهم، وسامهم في السجن سوء العذاب، وتبدَّل نعيمهم بؤسًا، وماتوا واحدًا تلو الآخر في السجون.

كانت تلك هي كل الأسباب الممكنة لحدوث نكبة البرامكة وتبدُّل نعيمهم بؤسًا، إلا أننا لا نستطيع أن نغفل طموح جعفر الكبير ورغبته في مناطحة الخليفة الرشيد ووضع رأسه برأسه، وأن يكون ندًا له دون أن يعلم أن في نهاية هذا الأمر نهايته هو وقومه.